15/21

مجلة للفكر الإسلامي المستقبلي

السياسة والأخلاق
إشكالية حقوق الإنسان في الوطن العربي

لاهوت التحرر: بين الثوره والإصلاح الديني في أمريكا اللاتينيّة

أمن أجل هذا قتل محمود طه؟

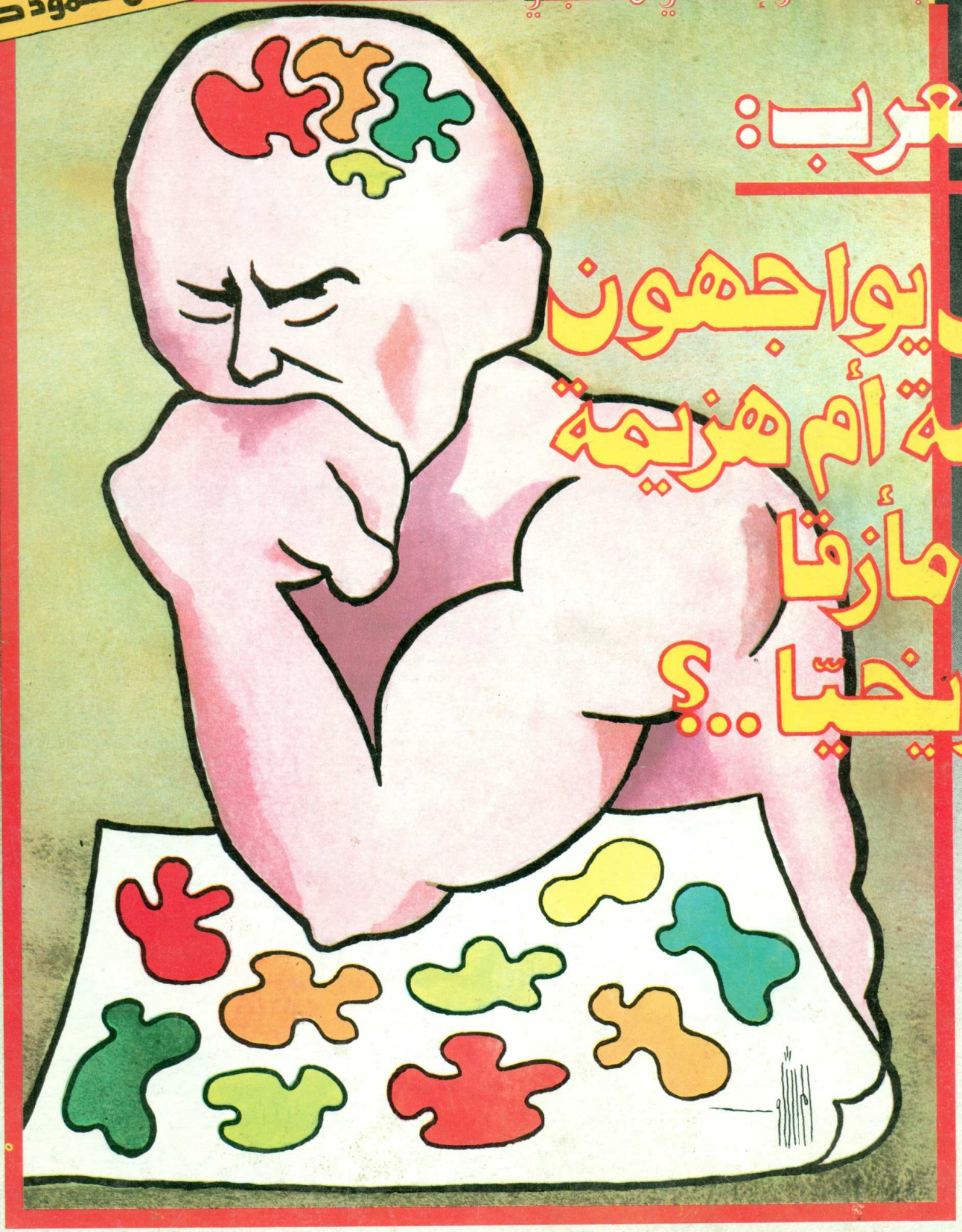

العرب:
هل يواجهون أزمة أم هزيمة أم مأزقا تاريخيّا..؟

العدد 11 . السنة الثالثة . تونس 1405 هـ 1985 م . الثمن 700 م

من اجل مفهوم جديد للهزيمة العربية

□ محمد القوماني

لعل من مظاهر الهزيمة في الفكر والواقع العربي أن الواحد يجد نفسه محتارا وعاجزا عن تحديد مساحة حديثه وعناصر موضوعة، إذا أراد ان يسجل مداخلة، أو يخط فقرات حول موضوع الهزيمة العربية. فالهزيمة صارت تغطّى كل شيء، والحديث عن الهزيمة صار حديثا بدون مناسبة وحديث كلّ مناسبة.

فهل نعني بالهزيمة الانتكاسة الحضارية، والسقوط الذي أزخ له ابن خلدون؟ ام تعني الهزيمة العجز عن تحرير أرضنا واقتلاع السرطان الصهيوني من قلبها؟ أم نعني بها الانحسار الذي يشهده مشروع نهضتنا والاحباطات والاجهاضات المستمرّة التي تمنى بها مشاريعنا واعمالنا ؟

على كل تتعدّد الزوايا التي ننظر منها لهزيمتنا، والذي نودّ إثارته ضمن هذا المقال ليس إضافة كمية من تشريح واقعنا و « بكاء » اعمالنا، وتأكيد هزيمتنا. أي ليس هذا المقال خطابا في الهزيمة بل هو خطاب على خطاب الهزيمة، ونقد لنقد الهزيمة. باختصار محاولة لاعادة النظر في بعض منطلقاتنا في العمل التغييري في إطار التفاعل مع بعض الطروحات حول موضوع الهزيمة للاستاذ ياسين الحافظ والدكتور حسن حنفي.

لما كانت الارض أعز ما لدينا، فان هزيمنا رغم شموليتها كان التاريخ لها انطلاقا من تاريخ أرضنا. فحلول جحافل جيوش المستعمر في أواخر القرن الماضي بأرضنا كان اذانا وتصديقا واضحا للانتكاسة الحضارية، وصوتا أفزع كل الآذان رغم ما سبقه من تردي الاوضاع ومؤشرات الهبوط. وفي النصف الثاني من هذا القرن كانت خسارة الحرب ضد اسرائيل عام 1967 والعجز عن تحرير أرضنا مؤشرا جديدا على النكسة واذانا بفشل المحاولات النهضوية السابقة التي بدأناها منذ قرن. وبالتالي منطلقا للتقييم وإعادة النظر ومراجعة الحسابات. فكيف بدت مختلف التفسيرات والمواقف من الهزيمة؟ والى أي حد استطاعت هذه التفسيرات والمواقف أن تلامس حقيقة الهزيمة وتكشف علّتها الرئيسية؟

1 ـ ضد الفهم المؤامراتي السياسوي للهزيمة

كان وصول جمال عبد الناصر الى السلطة في 1952 فتحا لصفحة جديدة في الرؤية الرسمية العربية والموقف الرسمي العربي تجاه الواقع العربي وقضية تحرير الارض المحتلة. فباتت قضية الوحدة، وتحرير فلسطين في مقدمة الاولويات العربية. وظل عبد الناصر بخطبه الرومنسية يعبىء الجماهير العربية في هذه المعارك الى حدود السبعينات. ثم جاء موعد المواجهة الذي دُفع له عبد الناصر دفعا سنة 1967 فكان قرار الحرب. لكن موضوعيا الحرب تندلع بقرار إسرائيلي لمزيد التوسع واحتلال أرض جديدة واجهاض أي احتمال للوحدة والنهضة العربية. لماذا !؟

خطب عبد الناصر في وفد فلسطيني بغزة قبل 1967 فقال في ما معناه «ان قضية فلسطين هي أصعب قضية في العالم، ومن يقول لكم أن قضيتكم سهلة انما يخدعكم لانها ليست اسرائيل وحدها، بل من وراء اسرائيل. من يريد الحرب لا بد أن يكون مستعدا لها. ونحن لسنا على استعداد (...) لا يمكن أن ننسى فلسطين بالطبع، ولا يمكن أن نتخلى عنها، ولكن أيضا لا يمكن ان نعالج قضية فلسطين بنفس الطريقة التي عولجت بها سنة 1948 بالمزايدات والبعد عن المسؤولية» (!) ان كان هذا وجه المعقول في تحليل عبد الناصر ورؤيته للواقع العربي وإمكانياته في المواجهة انذاك، فان خوض الحرب أو

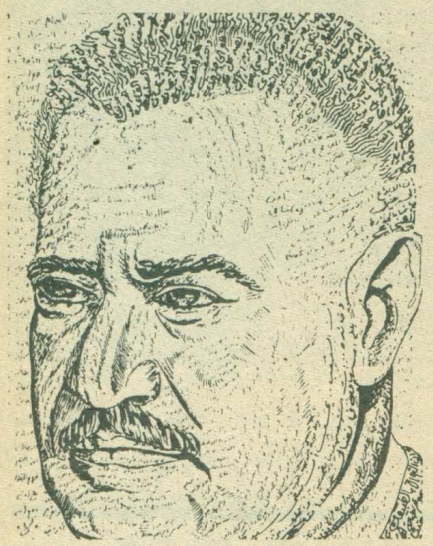

العزم عليها سنة 1967 ليس الا وجه اللامعقول بعينه. فالواقع انذاك كان بحاجة الى مزيد دفع مهام البناء لا الدخول في حرب. لكن عبد الناصر قرر الحرب وناقض البديهيات بسبب المزايدة مع البعث السوري نعم، ولكن أيضا نتيجة الفهم التخويني للهزيمة والرؤية السطحية للمواجهة التي كانت تقود عبد الناصر. ورد في «فلسطين الثورة» «لقد كانت جيوشنا (جيوشنا جميعا في حرب 1948) تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين... وكانت شعوبنا جميعا تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا ما يجري»(2). نعم كان عبد الناصر يفسر الهزيمة والتخلف العربي على أنه نتيجة لخيانة الحكام العرب. ولا يرى من المواجهة مع العدو الا الوجه العسكري المسطح. ◀

ولعلّ تجربته المرة كضابط في الجيش المصري سنة 1948 قد ساعدته على ذلك عندما كان يلامس قصور السلاح العربي وفساده. ولذا كان طبيعيا أن يعتبر عبد الناصر استبدال «الخونة» بـ «وطنيين» وبناء «جيش قوي» كفيل بتحقيق النصر. وهو ما شكل خلفية «ثورة يوليو 1952».

لم يكن هذا تصور عبد الناصر وحده بل شكل خلفية كل القوى التغييرية في الساحة وخاصة القوميين العرب منهم. فالخطاب السياسي العربي طيلة العقود الاخيرة - ظل يفسر تخلفنا وهزيمتنا ومأساتنا على أنها كانت نتيجة حتمية لتواطىء مباشر وغير مباشر بين الانظمة القائمة في الوطن العربي وبين الامبريالية والصهيونية وبالتالي كان التركيز على وصف هذه الانظمة بالجهالة والخيانة وتحميلها وحدها مسؤولية الهزيمة وتردي الاوضاع. والعمل مقابل ذلك على تأليب الجماهير ضدها، ضمن تصور يرى الخلاص في مجرد الاطاحة بهذه النخب الحاكمة واستبدالها بنخب «وطنية» و«ثورية» و«تقدمية» جديدة تنهي المأساة وتحقق الامال. هذا الفهم المؤامراتي والاحادي الجانب نعتقد أنه إكتفى بنقد السطح السياسي للمجتمع (السلطة) دون أن ينفذ الى تحليل عمق تركيبات مجتمعنا وابحث عن أسباب تأخرنا وهزيمتنا بين ثناياه. وكان كلما إزدادا التركيز على نقد السلطة كلما إبتعد المجتمع عن مجهر النقد وبقي بمنأى عن التشكيك والتساؤل. وبالطبع فان كل خطإ في المقدمات ينتهي الى خطأ في استراتيجية المواجهة. وكما كان الامر بالنسبة لعبد الناصر في 1967. انتهت محاولات المعارضة العربية عادة الى جملة من الانفجارات والصدامات مع الانظمة الحاكمة راح ضحيتها خيرة شباب الامة ومفكريها بين الاغتيال والتشريد والسجون، وربما كانت النتائج في الساحة الاجتماعية والسياسية معاكسة تماما للمطلوب.

2 - من أجل لاهوت أفقي

بعد هزيمة 1967 استعاد الخطاب الديني التقليدي موقعا بارزا في الساحة العربية. وانتعشت التيارات السلفية. فقد رأى البعض في الهزيمة عقابا من الله بسبب البعد عن طريقه، وهو قدر لا بد منه لاصلاح أخطائنا و«الرجوع الى طريف السلف الصالح». بل أصبح هذا الخطاب يُلقى حتى من المنابر الرسمية. فأعيد طبع بعض الكتب القديمة وانتشر الوعظ والارشاد وذاعت خطب الشيخ كشك وأمثاله في مقارنته بحروب «الصحابة» وبات الجميع «تائبين - مسلمين - متقين»..

الخطاب الديني السلفي غاب فيه الوعي التاريخي

والى جانب توجيه اللوم الى «تقصيرنا الديني» و«البعد عن الله» كان التركيز على ارجاع قوة العدو الى تمسكه «بدينه وأصوله». فتتم الاشارة الى انتشار العبرانية واليهودية في مدارس اسرائيل. وتجمع تصريحات الزعماء الصهاينة في كتب صغيرة ويتم إبراز البعد الديني فيها(3).

هذا الفهم الاخلاقوي الغيبوي (والواو اشارة الى الفهم الخاطىء للغيب) للهزيمة هو الاخر كان ينظر الى المسألة في سطحها دون أن ينفذ الى عمقها. ففي نقده لاوضاعنا الدينية غاب عند هذا الخطاب الوعي التاريخي. وعجز عن فهم طبيعة المرحلة التاريخية التي نمر بها مما أقعده عن صياغة عقلانية لتفكيره الديني تجعله في مستوى المرحلة كما غاب في هذا الخطاب تحديد خصائص اللحظة الحضارية التي يمرّ بها مجتمعنا وما تطرحه من مهمة. فراح يكرر مضمون الاصلاح الديني الذي بدأ منذ أواخر القرن الماضي، بل كان يعيد إنتاجه بطريقة رديئة ومنتكسة الى الوراء لذا عجز هذا الخطاب عن تحويل الاصلاح الى تنوير فعلي مؤسس لنهضة اذ «الاصلاح لا يضع أسس

* الشيخ كشك : انهزمنا لبعدنا عن الله

نهضة فكرية شاملة لاعادة بناء التفكير الديني نفسه وتحويله الى نظرية علمية. الاصلاح الديني يوقظ، لكن النهضة العلمية تؤسس»(4).

أما في إبرازه للبعد الديني عند العدو فكان الخطاب السلفي أكثر سطحية. فهو لم يدرك إلى أي حد استطاعت الحركة الصهيونية أن تجعل اللاهوت اليهودي في خدمة قضيّتها فربطت وعد الله بالخلاص بالعودة الى أرض الميعاد وأصبح الله في خدمة الارض وراج «... من يقيم خارج أرض اسرائيل هو مثل إنسان بدون إله» (سفر التكوني - الاصحاح 17). وعلى العموم ساد اللاهوت الافقي عند الصهاينة فكان اله اليهود وكان الكيان الصهيوني بفلسطين. أما الحركات الدينية عندنا فراحت تدافع عن «الله» وعن «حكم الله» وصورت الله مقابل الانسان وجعلته مفارقا أشد المفارقة والحال أن «اعتبار المقدس خارج العالم عجز عن إدراكه داخل العالم، وخوف منه وإبعاد له» (5). نعم أبعد الله عن جماهيرنا وأرضنا. فأصبح موجودا ونحن مسلمون سواء حررت أرضنا أم لم تحرر وسواء كنا متقدمين أم متخلفين منتصرين أم منهزمين فكانت النتيجة عكس ما حققه الصهانية سيادة اللاهوت العمودي فكان الاله المفارق وكانت تطبيق الشريعة وإقامة الحديد وظلت أرضنا محتلة وثروتنا منهوبة والاواكس تحرس مقدساتنا ونسينا حتى تساؤل فقهاءنا قديما : عن جواز الصلاة في أرض مغصوبة!؟

3 - سقوط الاقتصادوية

كان مأمولا أن يقوم الماركسيون العرب بدور النقد العلمي والتشريح العميق لواقعنا والبحث عن الأسباب الحقيقية لهزيمتنا في ثنايا المجتمع بما أن الماركسيين يزعمون امتلاك وعي كوني ومنهج علمي وتحليل اجتماعي. لكن شيئا من هذا لم يحدث فقد إنتهت «القوالب» الماركسية في البحث عن القوانين التي تحكم مجرى الحروب والمعارك الى تبرير الهزيمة وتأكيد حتميتها انطلاقا من تحليل اقتصادوي واستناد الى المقولة الماركسية المشهورة عن عجز البورجوازية الصغيرة وحتمية هزيمتها. ولن نتوقف كثيرا في نقد هذه المقولة وهذا

«مجتمع لا يمنع زعامته من أن تخون هو مجتمع مهزوم بالقوة»

التحليل - فقد أخذ حظا وافرا في كثير من المواضع الأخرى لكن يكفي التساؤل : لماذا هُزمت البورجوازية الصغيرة العربية وانتصرت البورجوازية الصغيرة الاسرائيلة؟! ثم انطلاقا من مقولة البورجوازية الصغيرة كمقولة اجتماعية ماركسية ألا يمكن تحميل الهزيمة الى أكثر من نصف المجتمع العربي؟ وأخيرا ما موقع الايديولوجيات المختلفة لبورجوازية صغيرة عربية واحدة في الهزيمة؟

4 - من أجل ثورة دائمة

ان هزيمة 67 بل هزائم العرب المتتالية كانت دائما تضع «كل الانجازات العربية»

التحدي الكامل...

على المِحك وتسلط الأضواء على جميع جوانب المجتمع العربي وتكشف عن مدى فعالية كل مشروع مقترح. والهزائم المتتالية تأكيد بأن واقعنا لا يشكو من «قلة صدق النوايا» ولا من «قلة المحاولات» كما قد يبدو للبعض. بل بالعكس ربما يشكو من كثرة المحاولات الفاشلة. فنحن مثلا في كل مرة نقرر ذاتيا أن نخوض الحرب من أجل تحرير فلسطين لكن موضوعيا تندلع الحرب بقرار اسرائيلي لمزيد التوسع والتدمير. ذلك ما حصل في سيناء والجولان والمفاعل النووي العراقي، وغزو بيروت 1982. والانقلابات و«الثورات» في الوطن العربي تقوم باسم ازاحة «الخونة» ورفع التسلط عن الجماهير وتعبئة الامة في معاركها الحقيقية لكن النتيجة تكون مزيدا من الخيانات. ومزيدا من قمع الجماهير وتهميشها. والهوية والاصالة والاشتراكية والوحدة والديمقراطية والتنمية و... باتت شعارات الجميع في الساحة لكن الواقع ذاهب نحو مزيد من الاغتراب والتجزئة والاستبداد والحيف والخراب و... تتعدد مظاهر الاحباط والتراجع في واقعنا. ويبقى السؤال المركزي لفكرنا وواقعنا المعاصر :

هل نقدر على وضع حدّ لما نعيشه من اجهاضات مستمرة لمشاريعنا. أو على حد قول حسن حنفي : الى أي مدى يمكن أن نضمن مرة واحدة ثورة دائمة؟ وما هي شروط هذه الثورة؟ وما هي مقومات النهضة التي لا تحتوي على انتمائها بمجرد بدايتها؟

تحقيق ثورة دائمة وتوقيف الاحباطات والاجهاضات لن تكون حتما إلّا بهجر الفهم السطحي والمؤامراتي للهزيمة ورؤية واقعنا في عمقه الاجتماعي والثقافي والحضاري فكل هزيمة نمنى بها ليست في الاخير الا اختبارا حقيقيا لبنى المجتمع العربي وهياكله وحركته وسير تطوره. واختبار للايدلوجيا التي توجه هذا المجتمع. وان «مجتمعا لا يمنع زعامته من أن تخون هو مجتمع مهزوم بالقوة»(6).

تحقيق ثورة دائمة، ومواراة الهزيمة نهائيا وتحقيق نصر فعلي يبقى مرهونا بامتلاك وعي تاريخي وتحليل حاضرنا من أجل اكتشاف مكوناته التاريخية ومعوقاته في الماضي ومن أجل إعادة بناء الانسان العربي واكتشاف بعده التاريخي واعطائه أساسا نظريا للتغيير بتغيير طاقاته المخزونة كمقدمة ضرورية لتحقيق مطالب العصر. يقول الاستاذ ياسين الحافظ «لقد أن للنخبة السياسية بخاصة والانتيليجنسيا العربية بعامة أن تفهم وتعرف أنها هي المهزومة. ان وعيها التقليدي المفوت هو المهزوم. وبكلمة المجتمع العربي برمته في بناه القائمة هو المهزوم.

نقطة البداية هي أولا قلب الاستراتيجية العربية قلبا كليا، وبالتالي اعتبار تحديث وعقلنته وكوننة وعي الانتيلجنسيا العربية مقدمة لا بد منها لتعديل ميزان القوى لصالح الامة العربية. ثانيا : أن نعمق ونجذر نقدنا فندفعه من نقد الانظمة (اي السطح السياسي) الى نقد المجتمع (العمارة) وبالتالي المطلوب قلب مجتمع وليس قلب حكم فقط» (7).

5 . في أولوية المسألة الثقافية

إن تأكيدنا في العناصر السابقة على ضرورة رؤية هزيمتنا في بعدها الثقافي والمجتمعي ليس الا دعوة لاعادة النظر في منطلقاتنا في العمل التغييري كما ذكرنا في مقدمة المقال فنحن مثلا : هل نقدر على إكتساب وعي كوني، وتحقيق إبداع وتقدم في المجالات المختلفة للعلوم المعاصرة

أعمالنا ومشاريعنا تبقى خبطا عشوائيا بلا بوصلة ما لم تقطع بإعطاء الاولوية للعمل الثقافي

بثقافة دينية لا زالت تقسم العلوم الى فرض عين وفرض كفاية وتضع معارف العصر ضمن فرض الكفاية (8).

وهل نقدر على تحقيق لذاتيتنا، وتحرير طاقاتنا وسيادة عقلانية في خطابنا، ونحن لا زلنا نئن تحت التصورات الاشعرية للقضاء والقدر، وتزهق عقولنا بالتشبيه والتشخيص في العقليات والاخرويات. ونلحق عقولنا بالنصوص فنقع في التأويلات. ونوظف العقل لتبرير «الدين» ونقطع وجودنا الى جزءين ترابي وسماوي. نزكي النفس وهي عاجزة عن فعل أي شيء ونعاقب البدن وهو لم يحصل على حقه في الحياة(9).

وكيف نحقق جماعية واشتراكية في علاقاتنا الاجتماعية ونحن أسرى اللاهوت العمودي. نعلي الاله أمام الذات. فنجعله مفارقا أشد المفارقة بعيدا عنا كل البعد ونسحق أنفسنا أمامه ويصبح الواحد يستعيذ من نفسه أمام ربه [أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا] ونعوض عن هذا الانسحاق العمودي للذات بأنانية أفقية في علاقنا ببعضنا. ويصبح كل واحد «أمة برأسه» وتسود «الانا» ويصير المثل [أخطا رأسي واضرب]

وكيف السبيل الى التنمية والتصنيع والتخطيط ونحن نعتقد أن [الرزق على الله] والله عندنا في السماء لا في الارض. ونعطي الاولوية للفضائل النظرية على الفضائل العملية على حسب التصور القديم. فنفضل عمل الادارة [بالقلم] على العمل اليدوي والفني والمهني. وكيف نبني فكرا استراتيجيا ونحن نتطلع الى المستقبل حسب «قراء الكف» و«التكازات» و«المأثور الشعبي».

وهل تقدر عقلية «الفرقة الناجية» ومنطق الاقصاء والتناحر الذي رزحنا تحته طويلا على بناء مجتمع مدني يقوم على المؤسسات والتعايش الجماعي.

ثم هل نحقق إبداعا وتقدما في واقعنا وفكرنا ونحن لن نتخلص بعد من سلطة النموذج القديم منه والحديث ويحكمنا

خطاب سلفي بتعبير الدكتور الجابري «وكل خطاب محكوم «بسلف» لا يرى الواقع الا من خلال «تمثال» فهو اذن خطاب وعي مستلب»(10).

هذه بعض أبعاد الهزيمة والعجز في ثقافتنا ولم نطل فيها لضيق المجال - لكنها تبدو كافية للتأكيد على أن عملنا ومشاريعنا تبقى خبطا عشوائيا بلا بوصلة ما لم نعمل على القطع باعطاء الأولوية في عملنا التغييري للمسألة الثقافية ونتجه نحو «تغيير الجذور النفسية والحضارية في وجدان هذا العصر، هذه الجدور التي تعتبر بالفعل أهم معوقات الثورة»(11).

نعم انّ التجارب التي أهملت أو تهمل المسألة الثقافية أو تؤجل الاهتمام بها متصورة بأن تأثير الثقافة في البناء الاجتماعي والسياسي والنفسي ليس بذي شأن كبير في مهمتنا الوطنية والقومية والعالمية فتضع الثقافة ضمن مشاريعهم في الدرجة العاشرة وكأنها نوع من الخدمات التكميلية أو الاقل أهمية. وتصبح الثقافة عندهم مقصورة على «التعليم» و«رفع الامية» وبعض «المعارف الرئيسية التقليدية» وفي أقصى الحالات تشمل مجالات التعابير الفنية والجمال ان هذه التجارب بمختلف انتماءاتها تنطلق من نظرة سطحية إلى الواقع. والنظرة السطحية لا تدرك من النتائج الا ما كان مباشرا. تقودها في ذلك عقلية نفعية. والثقافة كما هو معلوم لا تقدم مثل هذه النتائج. اذ نتائج الثقافة لا تدركها الا العقول التي تقدر على مراقبة فعل الثقافة

ياسين الحافظ

الهزيمة والايديولوجيا المهزومة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

* ياسين الحافظ : المجتمع العرب برّمته هو المهزوم .

في بناء النفوس وإعطاء الفعالية الانتاجية الحقيقية للفرد فضلا عن الجماعة. ثم ان النظرة التي تعطي الاولوية في عملها التغييري لجهاز السلطة بل ربما تقصر عملها على ذلك، على حساب المهمة الثقافية الجماهيرية ان هذه النظرة نحسب أنها إنقلابية ما أبعدها عن النظرة الثورية الفعلية. إن العمل الجماهيري على صعوبته يبقى هو العمل الثوري الفعلي. وإن كان العمل التغييري الحضاري جماهيريا أفلا يكفي ما وصلت اليه الدراسات الانسانية من أن الامراض النفسية التي تصيب الافراد والجماعات تعود في أغلبها الى أسباب ثقافية. مثل ما نعاصره نحن من ازدواجية في الشخصية وقلق وارتباك ولا مبالاة وقرب وتوتر وشعور بالنقص وغيرها من الامراض المتفشية والتي تترجم هزيمتنا.

لهذه الاسباب اذن - ولاسباب أخرى لم نذكرها - نعتقد بأن العمل الثقافي يحتل مساحة هامة بل الاولوية في مشاريعنا المناهضة للامبريالية والصهيونية والعاملة على ضرب واقع التخلف والتجزئة والتبعية. فالثقافة هي مناط شخصيتنا الحضارية المقاتلة في معركة التقدم. وعلى نقدها وتطويرها يتوقف مشروعنا بل كل عمل نريد من ورائه خروجا من الهزيمة وتحقيقا لاهدافنا في التقدم والانتصار وان أمتنا لن تغير ما بواقعها ولن تنطلق في «عالميتها الثانية» ولن تكون «خير أمة أخرجت للناس» الا متى استجابت لاولى نداءات وحيها المقدس «اقرأ» والقراءة جوهر المهمة الثقافية الحضارية.

الهوامش :

(1) أخذا عن الهزيمة والايديولوجيا المهزومة ص 110 - ياسين الحافظ - دار الطليعة ط 1 1979.
(2) فلسطين الثورة - ص 65 - جمال عبد الناصر
(3) انظر مثلا كتيب «قادة الغرب يقولون دمّروا الاسلام أبيد وأهله» سلسلة - وعي اسلامي -.
(4) قضايا معاصرة ج I ص 102 د. حسن حنفي - دار التنوير ط 1
(5) مقدمة - رسالة في اللاهوث والسياسة - ص 14 - دار الطليعة ط 2 1981.
(6) الهزيمة والايديولوجيا المهزومة ص 74.
(7) نفس المرجع ص 177
(8) أنظر المدخل الى دعوة الاخوان المسلمين سعيد حوى.
(9) انظر التراث والتجديد - حسن حنفي -
(10) الخطاب العربي المعاصر ص 55 محمد عابد الجابري - دار الطليعة.